المحاضرة الثانية عشر: النص النثري الجزائري المكتوب بالفرنسية

لا يخفى على أحد عمل الاستعمار منذ 1830 على طمس الهوية الجزائرية العربية الإسلامية، مستعملا كل الوسائل من ظلم ودمار لإطفاء جذوة كل انتفاضة سلمية أو ثورية، وتفنن في ابتكار الوسائل لمحاربة اللغة العربية، فعمل على تكوين نخب علمية وأدبية مفرنسة لإضفاء الشرعية على وجوده وتبرير ذلك تاريخيا ومن أمثلة ذلك قول أحد الاندماجيين:"أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر، وفتش عنها في الحالة الحاضرة، فلم يعثر لها على خبر، وأخير أشرقت عليه أنوار التجلي فإذا به يصيح: فرنسا هي أنا"[1].

إن الظروف التي فرضتها فرنسا الاستعمارية والمتمثلة في محاربة اللغة العربية بموجب القوة والقانون، وفي مقابل ذلك فرض اللغة الفرنسية، هذا الأمر دفع الكثير من الجزائريين إلى دراسة اللغة الفرنسية والعب من ثقافتها لدرجة إتقانها وممارسة الكتابة الفنية بواسطتها، فأدى ذلك إلى ازدواج في اللغة والأدب والثقافة وظهور أدب جزائري مكتوب بالفرنسية أثار الكثير من التساؤلات حول هويته هل هو أدب جزائري فرنسي الهوية؟ أم أنه أدب جزائري استعمل اللغة الفرنسية أداة للتعبير؟ وهذا الإشكال جعل بعض الأدباء الجزائريين يشعرون بالغربة حين يكتبون باللغة الفرنسية التي رأوا أن الظروف فرضتها عليهم، فجاء أدبهم يفيض بالمرارة والإحساس بالألم. لأن اللغة " إلى جانب كونها وسيلة للتعبير فهي تعكس روح الشعب وروح الحضارة التي ينتمي إليها الفرد والأمة وهي بهذا تمثل جزءا من التفكير"[2]. وقد عبر عن هذه المأساة أكثر من كاتب، واعترفوا أنهم غرباء منفيون في لغة أجنبية. وزاد من إحساسهم بهذه الغربة أنهم يكتبون لجمهور غير مواطنيهم فقراؤهم خارج بلادهم وهذا بسبب انتشار الأمية في وطنهم فهم من هذه الناحية يتامى محرومون[3] يقول مالك حداد لميشال أوديزيو "إن اللغة الفرنسية هي منفاي"، أما محمد الديب فيرى أن اللغة والثقافة الفرنسية سلاح من أسلحة المنازلة مع العدو وأنه " يسخر كل قواه الفنية للوقوف في خدمة

---

[1]- أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص241.

[2]- عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص241.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص242.

إخوانه المظلومين، بحيث تكون الثقافة سلاحا من أسلحة المعركة وكان همه الكبير هو أن يضم صوته إلى صوت الجموع منذ أول قصة كتبها"[1].

الأدب الفرنسي في الجزائر

أ- جيل شباب البحر الأبيض المتوسط

بما أن الاحتلال الفرنسي للجزئر كان استيطانا سياسيا وثقافيا وفكريا، فقد كان الفرنسيون يعملون على أن تنطق شمال إفريقيا باللاتينية و تحمس لهذه الفكرة أدباء فرنسيون، ثم مع بداية الثلاثينات كانت الفكرة هي صناعة إفريقيا على المنوال المتوسطي ، وقد ظهر جيل من الأدباء في تلك السنوات عرفوا باسم شباب البحر المتوسط، كان أغلبهم من الفرنسيين[2].

ولأكثر من قرن كان الكتاب الوحيدون الذين يكتبون باللغة الفرنسية في الجزائر من أصل أوروبي، وقد كانوا أبواقا للاستعمار يمجدونه وهم عبارة عن سياح فروا من باريس إلى أرض الشمس والبحر منهم: روبرت روبرت راندو، فردناند دوشين، شارل كورتن، غي دي موباسان، لويس برتراند. اهتم هؤلاء الكتاب بتصوير جمال طبيعة الجزائر، فهي عندهم جنان مهجورة ببحرها الهادئ وسمائها الزرقاء الصافية، فجاءت هذه الصور الطبيعية ألواحا فنية وائعة الجمال[3]. ويضاف إليهم مجموعة من الأدباء السياح منهم: أندري جيد، هنري دي منترلان، الذين اهتموا بالجانب الطبيعي للبلاد الذي أسروا به ولكنهم أهملوا وجود الاستعمار وواقع الشعب الجازائري وأعطوا صورة خاطئة عن الجزائرن وكانت كتاباتهم عنصرية صرفة تتغنى بفضائل الرجل الأروبي[4].

ب – مدرسة الجزائر

تميزت من الناحية الأدبية بالبعد عن وصف العادات والتقاليد وحياة القرى والأرياف والمدن الداخلية إلى التركيز على الشمس والبحر والحياة في المدن الساحلية، ويعد ألبير كامو من أبرز

---

[1]- ينظر: سعاد خضر، الأدب الجزائري الحديث، منشورات المكتبة العصية، بيروت، لبنان، 1967، ص85 وما بعدها.

[2]- ينظر: محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996 ، ص 104

[3]- سعاد خضر، الأدب الجزائري الحديث، 92

[4]- ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

مؤسسي هذه المدرسة كما يتجلى في أعماله: (أعراس: 1938)، (الغريب:1942)، (الطاعون: 1947)[1].

البدايات الأولى للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

يعود ظهور أول نص أدبي باللغة الفرنسية ظهر في الجزائر حسب المؤرخ الفرنسي (جون ديجو) إلى سنة 1890. وهو عبارة عن قصة بعنوان (انتقام الشيخ) لصاحبها محمد رحال، وقد اقتبس موضوعها من التقاليد الاجتماعية الجزائرية، نشرت هذه القصة بالمجلة الجزائرية التونسية الأدبية والفنية.[2] "ويتخذ هذا الكاتب سنة 1920 الانطلاقة الحقيقية للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، ويعد مؤلف "القايد بن الشريف" الموسوم ب "أحمد بن مصطفى القومي"بداية تلك الانطلاقة"[3].

هذا وقد ظهرت أعمال أدبية جزائرية في الفترة الممتدة بين 1920-1930، منها: "مجموعة سالم الفتى الشعرية والسيرة الذاتية للقايد بن شريف ويضاف إليهما رواية (زهرة امرأة عامل المنجمي) لعبد القادر حاج حمو التي صدرت سنة 1925، ورواية (مأمون لشكري خوجة التي صدرت سنة 1928، ورواية (العلج أسير بربروس) سنة 1929"[4].

غير أن البداية الحقيقية لهذا الأدب كانت في الربع الأول من القرن العشرين، حيث ألف الكتاب قصصا ونظموا قصائد تحمل الطابع الجزائري. وقد عبر الكثير منهم عن غربة التعبير باللغة الفرنسية، فالبعض يعتبرهم أدباء فرنسيين من أصل جزائري والبعض الآخر يعتبرهم أدباء جزائريين بتعبير فرنسي "وقد جسد هؤلاء ضياعهم في أبطال رواياتهم، وقد واجه الكثير منهم صعوبات في نشر أعمالهم، فلم يستطيعوا الوصول إلى الشعب، فظلوا محرومين من قرائهم الأصليين الذين يمثلون قلب الشعب بسبب حاجز اللغة الفرنسية.

هوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

---

[1]- ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 144.

[2]- ينظر: الحاج لونيس بلخياطي: الاتجاه الواقعي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، رسالة دكتوراه في الأدب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، تلمسان، الجزائر، 2016-2017، ص 39.

[3]- الحاج لونيس بلخياطي: الاتجاه الواقعي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، ص40

[4]- المرجع نفسه، ص41.

واستمر الجدل حول هوية هذا الأدب فاعتبره عبد اللطيف اللعبي رسالة مفتوحة إلى الغرب تحمل إليه الرفض والشهادة الوطنية وقال عنه فرانس فانون: إن هذا الأدب أرفع مستوى من الأدب الجزائري المكتوب بالعربية، غير أنه لم يكن أدب المقاومة بكل معنى الكلمة. ويعتقد الكاتب الجزائري مالك حداد أن التفاعل مع اللغة الفرنسية كسب وفرصة لإغناء الثقافة الجزائرية.أما الكاتب مراد بوربون فيرى أن هذا الأدب ليس من أدب المستعمر ولا استمرارا له فهو أدب متحرر، ويؤكد مالك حداد أن الأدباء الجزائريين وإن عبروا بالفرنسية فهم يترجمون أفكارا جزائرية.[1].

ولم ينل هذا الأدب القبول عند الجزائريين كافة، قال الطاهر وطار: إن الأدب الاشتراكي والبطل الاشتراكي لم يولد في الجزائر... إلا في الأدب المكتوب باللغة العربية. ولا يؤمن مصطفى الأشرف بجدوى الكتاب بالفرنسية ناسبا شهرتهم إلى النقاد الفرنسيين الذين لا يدركون الواقع الجزائري[2].

فاللغة الفرنسية في نظر المتمسكين بعروبتهم هي في الدرجة الأولى وسيلة المستعمر الذي حاول اغتيال اللغة العربية، ولذلك فإن معتنقيها لم ينجوا من حذر المحافظين وقسوتهم. يقول عبد المالك مرتاض: "إن رأي في هذا الأدب سيئ جدا وقد أكون مخطئا في ما أرى، وقد أكون قاسيا في ما أحكم. ولكنني لا أريد أن أكون منافقا في آرائي فأجهر بغير ما أخفي، ولو أردت أن أقول ما أعتقد لقررت بأن هذا هذا الأدب غريب في نفسه، ومنفي من موطنه الذي كتب فيه. ولم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر، فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة".[3]

ويبرر مرتاض رأيه هذا بالقول إن معظم الكتاب الجزائريين بالفرنسية "ظلوا معجبين كل الإعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص وبالحضارة الغربية بوجه عام، جاهلين بالتاريخ العربي، غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية".[4]

---

[1]- ينظر: سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض التحرير، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص277-179.

[2]- المرجع نفسه، ص 280-281.

[3]- عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص20.

[4]- المرجع نفسه، ص ن.

وهو لا يتهمهم بنقص الوطنية ولا بنقص الشعور بالمسؤولية، ولكن ينقصهم شيء واحد هو الإلمام باللغة العربية التي كان شعبهم يتحدث بها، فحرموا كل شيء. وجر عليهم تعلم الفرنسية مصيبة لا تبرح بعض آثارها ماثلة في المجتمع الجزائري إلى اليوم، وهي أنهم أقبلوا على محاربة العربية مع من يحاربها من الفرنسيين، متهمين أهلها بالجمود، رامين أصحابها بالقصور، مسلطين عليهم كل وصمة، ملحقين بهم كل عار وشنار.[1]

أما الدكتور عبد ركيبي فله موقف أقل حدة تجاه هذا الأدب من موقف عبد المالك مرتاض، فهو يرى أن الذين عبروا بلغة فرنسية لم يحسوا بالازدواجية اللغوية ولم يحسوا بالمأساة قبل الثورة، لن هذا الأدب لم تتضح معالمه ولم يكن محل نقاش لأن اللغة الفرنسية هي التي كانت مسيطرة على شتى مظاهر الحياة[2].

أما بعد الثورة، فقد تغير الوضع لأن الثورة قامت لتعيد للجزائر شخصيتها العربية ومقومات هذه الشخصية وفي مقدمتها اللغة العربية ومن ثمة "كان لابد أن يقف الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية موقف الاتهام، لأن الإحساس القومي الذي نما بين أفراد الشعب منذ مدة طويلة قد بلغ القمة في الثورة، وصاحب ذلك رد عنيف ضد ما حمله الاستعمار للجزائر من تقاليد وأفكار وثقافة وأدب. وهذا الموقف هو الذي دفع بالبعض إلى إنكار هذا الأدب، ونظروا من هذه الزاوية فاعتبروا أن ما كتب بلغة فرنسية هو أجنبي ودخيل على الأدب الجزائري. ووضعوا الكتاب الجزائريين في صف واحد مع الكتاب الفرنسيين الذين ولدوا هم أيضا على أرض الجزائر وعاشوا فيها"[3].

نماذج من الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

1-محمد ديب*

تمثل ثلاثية محمد ديب التطور الفعلي للرواية المكتوبة بالفرنسية من حيث المضمون، لأنها أول رواية نزلت إلى الطبقات الدنيا في المجتمع متحدثة عن هموم البسطاء من عامة الشعب الجزائري واصفة أحواله القاسية ومعاناته من فقر وجوع وحرمان ، كما أنها أول رواية تحديث عن

---

[1]- المرجع السابق، ص20-21.

[2]- عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، ص 242-243.

[3]- المرجع نفسه، ص243.

*- ولد بتلمسان 1920.وهو مؤلف الثلاثية المسماة (الجزائر) ، ومجموعة قصص قصيرة بعنوان (في المقهى)

النضال السياسي في الجزائر وعن مناضلين يعيشون في الخفاء، مطاردين من طرف البوليس الفرنسي"[1]. حاول ديب في ثلاثيته رسم لوحة ضخمة للجزائر عشية الحرب العالمية الثانية. فمن خلال عيني الفتى عمر الذي يعطي النموذج والوحدة للثلاثية بمغامراته، يعرف القارئ العناء المادي والنفسي الذي عاشه الجزائريون، كما يعرف سبب القلق الذي أشعل نار الثورة، والواقع أن بطل الثلاثية الحقيقي هو الجزائر نفسها، كما أن اليقظة النفسية والعقلية والعاطفية البطيئة للبطل عمر ترمز إلى ميلاد ضمير جزائري متلهف عل الاعتراف به[2].

في الجزء الأول من الثلاثية (الدار الكبيرة) الذي ظهر في عام 1952، يقدم الكاتب وصفا صارخا لحالة الفقر المدقع الذي كانت الطبقة العاملة تعانيه في المدينة، والتي لم تقدر على العيش محترمة لا أخلاقيا ولا ماديا.

وفي الجزء الثاني (الحريق) الذي ظهر عام 1954، نقل ديب البطل عمر إلى الريف حيث أصبح شاهدا على الفقر المادي والمعنوي الذي يعانيه الفلاحون الجزائريون. واكتشف البطل أن مواطنيه لم يكونوا أسعد حالا في الريف.وفي نهاية الجزء جعل الكاتب بطله يشاهد الحريق الذي سينتشر في البلاد كلها، يقول المؤلف: "إن النار قد بدأت ولن تتوقف أبدا. إنها سوف تستمر مشتعلة ببطء وبعماء إلى أن تعم ألسنتها الدموية البلاد كلها بحرارتها المدمرة"[3].

أما الجزء الأخير (المنسج) الذي ظهر عام 1957، فالكاتب يعود بنا إلى المدينة، فعمر شاب مراهق بدأ يعمل كنساج زرابي مثل ما فعل ديب نفسه. والحريق الذي قد كان بدأ في الريف انتشر إلى المدينة أيضا، حيث غزا الفلاحون الجائعون والعراة المدن ليشاركوا في نفس العيشة الضنكة التي يحياها من سبقوهم، وفي نهاية الثلاثية يصبح عمر رجلا يقف كرمز للتمرد الجزائري المتزايد في وجه الاستعمار.

2-كاتب ياسين*

---

[1]- الحاج لونيس بلخياطي: الاتجاه الواقعي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، ص44.

[2]- ينظر: أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 98.

[3]- محمد ديب، الحريق، 1954، ص133.

*- ولد في السمندو قرب قسنطينة، عام 1929.

هو صاحب رواية نجمة التي نشرت سنة 1956، "والتي تعتبر أحسن شاهد على ميلاد الجزائر الجديدة، وقد استقبل النقاد الفرنسيون هذه الرواية بحفاوة بالغة، كما اعتبروا مؤلفها أحسن من يمثل أفريقيا الشمالية الأدبية من غير الأوربيين"[1].

وقد تناولت الرواية حالة الفقر الذي يعيشه الجزائريون في المدن والاستغلال البشع والمهانة والذلة التي يتعرض لها العامل الجزائري في ورشات المعمرين وفي المزارع التي استولوا عليها على أطراف المدن. يقول الكاتب على لسان أحد أبطاله: "حين غادر آباؤكم الجبناء القبيلة ليخدموا الفرنسيين كانوا يتوقعون أن يعودوا بعد ذلك أقوياء كما كان قال. ليكن ذلك ولكن أين قوتكم الآن؟".[2] كما تعرضت الرواية للمظالم السياسية والاقتصادية في الجزائر.

3-مولود معمري

تسير أعماله القصصية في خط متواز مع تطور الوقائع السياسية في الجزائر، فروايته الأولى (الهضبة المنسية) تبتديء وقائعها في ما قبل الحرب العالمية الثانية لتصور الوضع في الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، يعبر في الرواية عن مآسي الشعب وأحزانه وآلامه وبؤسه. وفي روايته الثانية سبات العادل (le sommeil du juste) سنة 1955. صور فيها حالة الفقر والاستغلال والحرمان التي كانت تعاني منها القرى القبائلية المنعزلة في رؤوس الجبال، تحت وطأة الجهل والتقاليد المتحكمة في حياة الناس هذا من جهة ومن جهة ثانية استغلال الاستعمار لحالة الجهل والتخلف والخلاف بينهم بما يخدم مصالحه[3] وفي روايته الثالثة (الأفيون والعصا) فقد تغنى بحب الاستقلال[4].

4-مولود فرعون في رواياته (ابن الفقير 1950). عالج فيها الفقر في بلاد منطقة القبائل اثناء فترة الاحتلال. وهي تعتبر سيرة ذاتية تصف طفولة الكاتب ومراهقته، وهي تغطي السنوات الأخيرة

---

[1]- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص102.

[2]- كاتب ياسين: نجمة، باريس 1956. ص 8. نقلا عن: أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص103.

[3]- ينظر: الحاج لونيس بلخياطي: الاتجاه الواقعي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، ص44.

[4] - عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، تر: محمد صقر: ديوان المطبوعاتن الجامعية، الجزائر، ص 73

من الحرب العالمية الأولى. وتقع أحداث روايته الثانية (الأرض والدم) في الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين. أما الرواية الثالثة (الدروب الوعرة)، فهي امتداد لروايته الثانية[1]

خاتمة

ومهما قيل في هذا الأدب من طرف أنصاره وخصومه ، فإن هناك حقيقة لا يمكن أن ينكرها أحد وهي: أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية يحمل من السمات ما يجعله محل شك حيث إن بعض الكتاب بالفرنسية لم يخفوا إعجابهم بهذه اللغة وبحضارتها، وكتبوا بها باستمتاع شديد ينم عن ولاء ظاهر لحضارة هذه اللغة إلى درجة فقدان الانتماء، وهناك من الكتاب من لجأ إلى هذه اللغة مضطرا، وكتب بمرارة شديدة تجلت في شخصيات أبطاله، جسدت مأساة الانفصام بينه وبين لغة حضارته. وإن كان هناك من عذر يلتمس للكتاب بالفرنسية قبل الاستقلال، فإن هذا العذر يسقط بعده.

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص 72- 73.